المجمع **11** (2016/1438)، 209-224

منهج البيضاوي في التعريف بألفاظ القرآن الكريم: دراسة نقدية

مليكة ناعيم*

تلخيص:

يعد المعجم القرآني في كتب التفسير مجالا خصبا للدراسة، نظرا لخصوصيات هذا المعجم، وتباين طرق المفسرين في معالجته. وتهدف هذه الدراسة إلى بيان طريقة البيضاوي في التعريف بألفاظ القرآن الكريم من خلال نماذج منتقاة بموازاة مع عناصر الدراسة، وبيان أسسه المعتمدة في التعريف، وتوضيح موقفه من الدخيل وكيفية تعامله مع الألفاظ الدخيلة، وأثر هذا كله في قراءة كتابه وفهمه، لاسيما بالنسبة للقارئ غير المتخصص.

توطئة:

يعد المعجم أول قسم من أقسام اللغة بحسب ترتيب اللغويين العرب، والشرط الأول من شروط المفسر التي ذكرها المنظرون لعلم التفسير، ونص عليها المفسرون في مقدمات كتب التفسير[1]، ذلك أن لغة القرآن الكريم تمثل أرقى درجة الفصاحة في كلام العرب، وتضمنت من الألفاظ ما يتوقف استنباط الحكم الشرعي وتحديد المعنى السياقي على الدقة في تحديد معناه اللغوي والمعرفة بملابساته اللفظية، كما أنه تضمن ألفاظا غير عربية في الأصل، ولا يستطيع ميزها من العربي غير الضابط للغات العرب المحيط بألفاظها، لذلك فكل من يخوض في التفسير من غير معرفة أصل هذه الألفاظ قد يخطئ في تفسيرها ويتمحل في تأويلها، والخطأ في ضبط اللفظ ينتج

* كلية اللغة العربية مراكش.

[1]. يقول الراغب الأصفهاني : " إن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية. ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللّبِن في كونه من أول المعاون في بناء يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم....". مفردات غريب القرآن، ص.6.يقول أبو حيان: " الوجه الأول: علم اللغة: اسما وفعلا وحرفا، الحروف لقلتها تكلم على معانيها النحاة فيؤخذ ذلك من كتبهم، وأما الأسماء والأفعال فيؤخذ في ذلك من كتب اللغة، وأكثر الموضوعات في علم اللغة كتاب ابن سيدة ... ومن الكتب المطولة فيه كتاب الأزهري والموعب للتياني والمحكم لابن سيدة وكتاب الجامع لأبي عبد الله محمد بن جعفر التميمي الثيرواني"، البحر المحيط، 6/1.

عنه الخطأ في تصور بنيته الصرفية وتحديد قضاياه الإعرابية، مما يؤدي إلى الانزياح عن المعنى الأصل. وقد أدرك البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي (ت. 691 هـ) هذا الشرط، فاعترف في مقدمة تفسيره المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل بصعوبة تحققه وتردد في أول إقدامه على تفسير كتاب الله بزاد يسير، ثم اعتبر فك ملابسات الألفاظ من صميم أهدافه في تفسيره. فكيف تعامل البيضاوي مع معجم القرآن الكريم؟ ما مصادر تعريفاته؟ وما منهجه؟ تلكم أسئلة ستقاربها محاور هذه الدراسة.

I/ منهج البيضاوي في التعريف بألفاظ القرآن:

من شروط المقدمة في التراث العربي ذكر المصادر والإقرار بالمنهج المتبع[1]، وقد سار على هذا النهج كثير من المفسرين، فصرحوا بمنهجهم في مقدمة كتب التفسير، وبطريقتهم في تحديد الألفاظ ومصادرهم أيضا، وبالنظر إلى مقدمة الكتاب موضوع الدراسة نجد أن البيضاوي أوجز فيها إلى حد الإخلال؛ لم يفصل الحديث عن المنهج، إلا أنه أشار إشارة يسيرة في الخاتمة بالقول: " وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوي على فرائد ذوي الألباب، المشتمل على خلاصة أقوال أكابر الأمة في تفسير القرآن وتحقيق معانيه، والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات بيانه، مع الإيجاز، الخالي عن الإخلال والتلخيص العاري من الإضلال"[2]، فقد اعتبر تحديد الألفاظ الغامضة من ضمن أهداف هذا الكتاب، غير أنه في هذه الإشارة أوجز إلى حد الإخلال، إذ لم يذكر منهجه ولا سر انتقاء الألفاظ للتعريف بها من دون غيرها من الألفاظ التي تبدو بحاجة للتعريف. لذلك فتحديد منهجه يقتضي تتبع طريقة تعامله مع المادة اللغوية في الكتاب، ولأنه بالمثال يتضح المقال - كما قالت العرب - فإني سأقتصر في تبين منهجه على نماذج من سورتي الفاتحة والبقرة تمثل . في نظري . خلاصة لطريقته، وأكتفي بمثال فقط من سورة آل عمران لأهميته في الكشف عن موقفه من الدخيل ومثال من سورة الأعراف عن الترادف.

بالرجوع إلى تفسير البيضاوي المعنون بأنوار التنزيل وأسرار التأويل، ومن خلال النماذج المنتقاة لهذه الدراسة بناء على مقتضيات إنجازها، يتبين أن البيضاوي لم يتبع منهجا محددا في التعريف

[1]. ينظر: عباس ارحيلة: المقدمة في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع، ص.83.

[2]- البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 396/3.

بألفاظ القرآن الكريم، وإنما تختلف طبيعة تعامله مع المواد اللغوية لاعتبارات عدة، ويمكن تحديد أهم مميزات منهجه في النقاط الآتية:

1/ استحضار اللغات المختلفة للفظ من دون المفاضلة بينها ولا الترجيح: يقول في تعريف كلمة الصراط من قوله تعالى: " اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"[1]، "السراط من سرط الطعام إذا ابتلعه فكأنه يسرط السابلة، ولذلك سمي لقما لأنه يلتقمهم، والصراط من قلب السين صادا ليطابق الطاء في الإطباق، وقد يشم الصاد صوت الزاي ليكون أقرب إلى المبدل منه، وقرأ ابن كثير برواية قبل عنه ورويس عن يعقوب بالأصل، وحمزة بالإشمام، والباقون بالصاد وهو لغة قريش. والثابت في الإمام، وجمعه سرط ككتب وهو كالطريق في التذكير والتأنيث"[2].

من خلال هذا التعريف يمكن أن نسجل ملحوظات على منهج البيضاوي:

- اعتماد أصل المادة اللغوية في التحديد بحسب تصوره، وقد ترتب عنه بعض الوهم ولاسيما بالنسبة لغير العالم بعلوم القرآن والقراءات، فقد اعتمد في الآية قراءة الصاد، وفي أول شرح المادة اعتمد كلمة سراط باعتبارها الأصل ويفهم من تحليله للقلب، مع أن قراءة الجمهور بالصاد[3]، مما يجعل القارئ يفترض الخطأ إما في كتابة الآية وإما في التفسير، وكان الأولى هنا إما التصريح بالقراءات أولا مع التنبيه على الأصل أو القراءة التي يأخذ بها، وإما اعتماد مادة صراط والإشارة إلى تطور اللفظ وبعده التصريح بالراجح في تصوره أو الأصل.
- يظهر البيضاوي من خلال شرح لفظة الصراط بعض الإمكانات النسقية التي يبيحها النسق العربي للغة العربية، ومنها إبدال الحروف المتقاربة في المخارج والصفات، نحو السين والصاد والزاي، فقد ذكر القراءات المختلفة للسراط: السراط والزراط والصراط، بالمعنى نفسه، وهو مذهب معظم المفسرين[4]، ولم ينسب منها إلى قبيلة إلا قراءة الصاد.

---

[1]. الفاتحة، الاية 5.

[2]- البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 1/ 18.

[3] . قال ابن كثير: " قراءة الجمهور بالصاد .وقرئ : السراط وقرئ بالزاي، قال الفراء : وهي لغة بني عذرة وبلقين وبني كلب". تفسير القرآن العظيم، 1/48.

[4]. وهو ما عنونه ابن جني بالقول: باب في الحرفين المتقاربين يستعل أحدهما مكان صاحبه، الخصائص، 82/2 88. فقد صنفت الدراسات اللسانية الحديثة هذه الظاهرة ضمن الإمكانات التي يبيحها النسق العربي ما دامت المعطيات

- يبدو أن البيضاوي يقر بأفضلية لغة قريش على لغة غيرها من القبائل العربية، ذلك أن كل قراءة تمثل قبيلة من قبائل أو عدة قبائل، لكنه اكتفى بنسبة قراءة الصاد إلى لغة قريش من دون غيرها. ومعلوم أن التراث العربي فيه تفضيل لغة قريش[1]، مع أن القرآن الكريم ثابت أنه نزل (بلسان عربي مبين)، ولم تنفرد به لهجة قريش، وإنما نزل باللغة العربية الفصحى أو ما يعرف بالعربية المشتركة وقد تغلب عليها لهجة قريش وإن ليست هي.
- الإيجاز في التعريف فقد عرف اللفظ في الأصل اللغوي من دون ذكر معناه في السياق، وإن ورد ضمنيا في تعريف كلمة مستقيم بعده بالقول: "المستقيم، والمراد به طريق الحق".
- أن مصادره البيضاوي المصرح بها في التعريفات هي القراءات القرآنية واللهجات العربية، والشعر، ولم يذكر غيرها من المصادر، لكنه أشار إليها ضمنيا في مقدمته بالقول: "يليقُ تعاطيه [التفسير] والتصدي للتكلم فيه؛ إلا لمن برع في العلوم الدينية كلها، أصولها وفروعها !وفاق في الصناعات العربية، والفنون الأدبية بأنواعها .ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن كتابا يحتوي على :صَفوةِ ما بلغني عن عظماء الصحابة، وعلماءِ التابعين، ومن دونهم من السلف الصالحين .وينطوي على نكت بارعةٍ، ولطائف رائعةٍ، استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين، وأماثل المحققين .ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزوة إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين. إلا أن قصور بضاعتي؛ يبطئني عن الإقدام، ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سنح لي بعد الاستخارة ما صَمّم به عزمي على الشروع فيما أردته، والإتيان بما قصدته"[2].

التي ورد فيها ذاك الإبدال أو الإلحاق تنسجم والخصائص الصوتية للحروف وكذلك قواعد التأليف الأصوات داخل العربية. ينظر: السغروشني إدريس: مدخل للصواتة التوليدية، دار توبقال، البيضاء، 1967. والسلامي فاطمة: اللغة: المواطنة، الاقتصاد، التنمية، ص . ص. 45. 52.

[1]. قال ابن جني: "حدثنا أبو بكر محمد بن الحسن عن أبي العباس أحمد بن يحي ثعلب قال: "ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس، وعجرفية ضبة، وتلتلة بهراء". الخصائص، 11/2. وهذه ظواهر لغوية صنفت عند القدماء ضمن اللغات المذمومة لكن الدرس الحديث يعتبرها من مظاهر انفتاح اللغة العربية على غيرها من اللغات ومن الإمكانات التي يبيحها النسق العربي للغة العربية كما ذكرت في تعليق سابق.

[2]. البيضاوي: أنوار التنزيل، 3/1.

2/ توضيح اللفظ من خلال لفظ يشترك معه في خاصية ما: من الآليات المعتمدة في تعريف الألفاظ لدى البيضاوي، توضيح اللفظ من خلال لفظ آخر يشترك معه في خاصية معينة، ومنه قوله: "مساكن: جمع المسكين وهو الذي أسكنته الخلة، وأصله دائم السكون كالمسكير دائم السكر"[1]، فالعلاقة التي تربط المسكين بالمسكير هي خاصية الدوام، لذلك اعتمده البيضاوي في التوضيح.

ومنه أيضا قوله: "تشاور: التشاوُر والمُشاورة والمَشورة والمشورة استخراج الرأي من ترتيب العسل إذا استخرجه"2 . فليس بين المشورة والعسل قاسم مشترك، لكنهما يلتقيان في آلية "الاستخراج".

ومنه أيضا: "وابن السبيل، المسافر، سمي به لملازمته السبيل كما سمي القاطع ابن الطريق، وقيل الضيف لأن السيف يرعف به"[3]. فالعلاقة بين اللفظين ليس في الدلالة وإنما في سبب التسمية فقط.

إن التعريف بالمثال معتاد في التراث العربي وقد تبناه سيبويه (ت. 180 ه) في تعريف المصطلحات النحوية[4]، لكن الأمر هنا مخالف لأنه يوضح معنى اللفظ من لفظ بعيد عنه في المعنى والحقل الدلالي وإن شاركه في خاصية ما. وأحيانا يشير إلى النقيض، ومنه قوله: "السفه: خفة وسخافة رأي يقتضيهما نقصان العقل، والحلم يقابله"[5]. فقد وضح معنى السفه من خلال نقيضه وهو الحلم وإن لم يرد في الآية.

[1]. المصدر نفسه، 161/1. ويلحظ هنا أنه لم يعرف اللفظ أول ما ذكر في السورة وإنما اكتفى في تفسير قوله تعالى: "وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين". البقرة الاية، 82. بالقول: " ومسكين مفعيل من السكون كأن الفقر أسكنه". 115/1.

[2]. في تفسير قوله تعالى: "فإن أرَادَا فِصَالاً عنْ تَرَاضٍ مِنهُماَ وتَشَاوُرٍ فلاَ جُناَح عَلَيهِما". البقرة، الاية 231. ينظر اليضاوي: أنوار التنزيل، 202/1.

[3]. المصدر نفسه، 1/ 161.

[4]. ومنه قوله: "والاسم: رجل، وفرس، وحائط". كتاب سيبويه، تحقيق محمد عبد السلام هارون، ط.3، دار الخانجي، القاهرة، 1988، 12/1.

[5]. البيضاوي: أنوار التنزيل، 49/1. في تفسير قوله تعالى: "قَالُوا أَنُؤْمِنُ كمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ". البقرة، الاية: 12.

3/ ذكر المعاني السياقية المختلفة للفظ من غير ميز ولا ترجيح: ومنه: "ومَا جَعَلْنَا الْقبْلَةَ التِي كُنْتَ عَلَيْهَا إلا لِنَعْلَمَ منْ يتَّبع الرَّسُول مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَاقِبَيْه"[1] يقول: "من الجعلة أو الردة أو التولية أو التحويلة أو القبلة"[2]، فهذا من مواضع الإيجاز إلى درجة الإخلال، لأن كل لفظة منها تحتاج إلى توضيح وشرح، لاسيما أنه ذكر ضمنها الجعل والقبلة أيضا وهما مادة الشرح، و "أو" التي للتخيير تؤكد التباين في المعنى فكان الأولى توضيحه الحدود بين هذه الألفاظ التي قد تبدو للقارئ مترادفة.

- ومنه أيضا القول بالمعاني المختلفة للفظ من دون ترجيح، ومنه "من خلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه، أو من خلاك ذم أي عداك ومضى عنك، ومنه القرون الخالية، أو من خلوت به إذا سخرت منه"[3]. فقد قدم المعاني المختلفة المحتملة للكلمة داخل السياق من غير ترجيح بينها مع أنها معان متباينة إلى حد التعارض لاسيما بين "انفرد بك" و"مضى عنك".

- 4/ ذكر المرادفات المختلفة للفظ، وفيه إشارة إلى أن البيضاوي يقول بالترادف في اللغة، ومنه في تفسير قوله تعالى: " *وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ* إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "4، يقول: "ينخسنك منه نخس أي وسوسة تحملك على خلاف ما أمرت به كاعتراء غضب وفكر، والنزغ والنسغ والنخس الغرز"[5]، فالبيضاوي يعتبر هذه الألفاظ مترادفة، ويخالف بذلك من ذهب إلى أن لكل كلمة معنى يخصها ويميزها عن الكلمات التي تشترك معها في المعنى العام أو تتقارب، ومنه ما ذكر ابن جني في باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني[6]. ومنه أيضا قوله هزأ واستهزأ بالمعنى نفسه، وقد خرق بذلك قول العرب الزيادة في المبنى زيادة في المعنى، والشائع أن

---

[1]. البقرة، الابة، 142.ض

[2]. البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 1/ 146.

[3]، البيضاوي: أنوار التنزيل، 1/ 50. تفسير الاية 13 من سورة البقرة "وإِذَا خَلَوا إِلَىَ شيَاطِينِهِم قَالُوا إِنَّا مَعَكُم".

[4]. الأعراف، الاية: 201.

[5]. البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 3/85. جاء في لسان العرب: "نزغ: أغرى وأفسد وحمل بعضه على بعض". مادة نزغ. "نسغت الواشية بالإبرة نسغا: غرزت بها. والنسغ تغريز الإبرة (...) والنسغ مثل النخس". مادة نسغ. فيظهر أنه لم يقل بترادفها.

[6]. ابن جني أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق عبد الحليم النجار، 2/ 145. 152.

زيادة الحروف الثلاثة بهذا الترتيب "است" تفيد الطلب، يقول: ""هُزِئت واستهزأت بمعنى، كأجبت واستجبت"[1].

5/ إيراد الدلالات المختلفة للفظ مع ترجيح: على الرغم من الإيجاز في منهج البيضاوي، عن قصد وبتصريح منه، فإنه أحيانا يتوسع في إيراد الدلالات ويستطرد في ذكر المعاني السياقية التي يحتملها اللفظ مع تصريح بالمعنى الذي يرجحه، ومنه في تفسير قوله تعالى: "وإِذْ أَتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ والفُرْقَانَ"[2]، يقول: "يعني التوراة الجامع بين كونه كتابا منزلا وحجة تفرق بين الحق والباطل، وقيل أراد بالفرقان معجزاته الفارقة بين الحق والباطل، وقيل أراد بالفرقان معجزاته الفارقة بين المحق والمبطل في الدعوى أو بين الكفر والإيمان"[3]. فقد بدأ البيضاوي بذكر المعنى الذي يرجحه فكان ممكنا الاكتفاء بذكره، لكنه فضل ذكر التآويل المختلفة للفظ من دون مناقشتها ولا التعليق عليها، وميزها من المعنى الذي يرجحه ببناء القول للمجهول "قيل"الذي يوحي بعدم الاهتمام بالقول، في مقابل "يعني" لمعنى التوراة الذي يرجحه ويفيد الإقرار بالمعنى والقول به.

6/ الفصل بين الألفاظ الملتبسة: كثير من الألفاظ شاع القول بترادفها مع أن بينها فروقا دقيقة في المعنى، وقد حرص البيضاوي في تفسيره على الميز بينها وإن لم يذكر بعضها في الآية، ومنها الخشوع والخضوع، يقول في تعريف الخشوع من قوله تعالى: "إِلَّا عَلَى الخَاشِعِينَ"[4]، "أي المخبتين والخشوع الإخبات ومنه الخشعة للرملة المتطامنة، والخضوع اللين والانقياد، ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب"[5]. فعلى الرغم من أن الآية لا تتضمن لفظة الخضوع، إلا أنه لما شاع القول بترادفهما، فقد نبه البيضاوي في إشارة لطيفة منه إلى اختلافهما في المعنى، ولعل هذا مما قصد بالقول في مقدمته: "الكشف عن عويصات ألفاظه".ومنه ميز التكبر من الاستكبار، في تفسير قوله تعالى: "إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى واسْتَكْبَرَ"[6]، قال: "والتكبر: أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره. والاستكبار طلب

[1]. البيضاوي: أنوار التنزيل، 50/1. تفسير قوله تعالى: "إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِءونَ". البقرة، الابة 13.

[2]. البقرة، الاية52.

[3]. البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 101/1.

[4]. البقرة، الاية 44.

[5]. البيضاوي: أنوار التنزيل، 1/98.

[6]. البقرة، الاية 33.

ذلك بالتشبع"[1]. وهذه تنبيهات جيدة من البيضاوي لأنها ترفع اللبس وتفند رأي القائلين بترادف اللفظتين وتنبه على ضرورة مراجعة القول بالترادف.

ومن أمثلته أيضا تعريف السفك من قوله تعالى : "وَيُسْفِكُ الدِّمَاءَ"[2]،: "السفك والسبك والسفح والشن أنواع من الصب، فالسفك يقال في الدم والدمع، والسبك في الجواهر المذابة، والسفح في الصب من أعلى والشن في الصب من فم القربة ونحوها، وكذلك السن"[3]. فهذه المواد تشترك في أصل المعنى، لكن لكل واحدة خاصية في المعنى تميزها، وهو من شجاعة العربية وعبقريتها، وبهذا يفند قول القائل ترادفها، لأمن اللبس حرص البيضاوي على ميزها من بعض على الرغم من أن النص لا يتضمن إلا السفك. وهذا يندرج ضمن أهدافه في فك عويصات اللفظ.

II -منهج البيضاوي في ترتيب تعريفاته:

بالرجوع إلى خاتمة الكتاب والتي هي في الأصل من عناصر المقدمة، نجد المعجم في الرتبة الثالثة ضمن اهتمام البيضاوي، ويأتي بعد أقوال السلف وتحديد الدلالة السياقية، وهو وصف التزم به في تفسيره؛ إذ غالبا ما يبدأ بذكر الإعراب والدلالة واللطائف البلاغية قبل أن يورد المعنى اللغوي للفظة، مخالفا بذلك جمهور المفسرين الذين ينطلقون من المعنى اللغوي. ومن نماذجه تفسيره لقوله تعالى: "فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُم الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ"[4]، يقول: "مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلكم شهر رمضان، أو بدل من الصيام على حذف المضاف أي كتب عليكم الصيام صيام شهر رمضان، وقرئ بالنصب على إضمار صوموا، أو على أنه مفعول، وأن تصوموا وفيه ضعف، أو بدل من أيام معدودات. والشهر: من الشهرة، ورمضان: مصدر رمض إذا احترق، فأضيف إليه الشهر وجعل علما ومنع من الصرف للعلمية والألف والنون، كما منع داية في ابن داية علما للغراب للعلمية والتأنيث، وقوله صلى الله عليه وسلم: "من صام رمضان". فعلى حذف المضاف لأمن

[1]. البيضاوي: أنوار التنزيل، 88/1.

[2]. البقرة، الاية 29.

[3]. البيضاوي: أنوار التنزيل،83/1.

[4]. البقرة، الاية،184.

الالتباس، وإنما سموه بذلك إما لارتماضهم فيه من حر الجوع والعطش، أو لارتماض الذنوب فيه، أو لوقوعه أيام رمض الحر حين ما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة"[1].

يبدو أن البيضاوي يحتفي بالنحو أكثر من المعجم مما جعل فهم المعنى مشكلا، فقد بدأ بالإعراب أولا وثنى بالمعجم ثم رجع للإعراب ومن خلاله لإتمام المعنى اللغوي للفظ والتأصيل له، مما نتج عنه الغموض وصعوبة الوصول إلى المقصود، وكان الأولى الفصل بين المستويات والالتزام بترتيب معين. وهذه ملحوظة تلحظ على التراث العربي في مجمله، أقصد التداخل بين المستويات مما يجعل الفهم عسيرا بالنسبة للطالب المبتدئ، ويقتضي التنبيه على أن هذا مجال رحب للبحث لتيسير قراءة التراث والتشجيع على الرجوع إليه، أقصد إعادة التصنيف والتبويب.

ولم يلتزم البيضاوي بهذا النهج في الكتاب كله، وإنما اعتمده في مواضيع وخالفه في أخرى.

أحيانا يذكر المعنى المعجمي للفظة ويسميه المعنى الأصل[2]، ويعطف عليه المعنى السياقي[3]، ومنه صلوات من قوله تعالى: "*أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ*"[4]، يقول: "الصلاة في الأصل للدعاء، ومن الله تعالى التزكية والمغفرة. وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها"[5]. فقد ماز المعنى اللغوي للكلمة من المعنى السياقي. ولم يشر إلى أصل اللفظة.

[1]. البيضاوي: أنوار التنزيل، 167/1.

[2]. إن تسميته بالمعنى الأصل له ما يدعمه لو التزم به في الكتاب كله، لأنه "هو الأصل من بين أنواع المعاني، لأنه الذي وضع اللفظ له أول الأمر. في أقدم ما نعلم من تاريخ العربية". جبل محمد حسن حسن، المعنى اللغوي: دراسة عربية مؤصلة نظريا وتطبيقيا، مكتبة الآداب، القاهرة، 176-177.

[3]. إن الجمع بين المعنى المعجمي والمعنى السياقي يعد من ركائز كل مشروع قراءة او تفسير وذلك عبر "المراوحة بين المعنى النصي (المساقي) للكلمة ومعناها المعجمي. والتخريج الدلالي الأكثر ملاءمة وانسجاما هو الذي تدعمه أدلة وشواهد سياقية خارجية". التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربي للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، ط.1، 2010، ص.ص. 192.193.

[4]. البقرة، الآية 152.

[5]. البيضاوي: أنوار التنزيل، 152/1.

وأحيانا يقدم السياق على الأصل يقول عن السبت: "والسبت مصدر قولك سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت، وأصله القطع أمروا بأن يجردوه للعبادة"[1]. وأرى أنه لو بدأ بالمعنى المعجمي لكان أكثر دقة ووضوحا ولما احتاج لتكرار الحديث عن المعنى السياقي بعده.

ومن النماذج التي يظهر فيها الغموض تفسيره لقوله تعالى: " فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ "[2] يقول: "عذابا مقدرا من السماء بسبب فسقهم، والرجز في الأصل ما يعاف عنه، وكذلك الرجس. وقرئ بالضم وهو لغة فيه، والمراد به الطاعون"[3]. ففي القول ثلاثة تعريفات لم يسم منها إلا الأصل تمييزا له من غيره، الأول يظهر أنه المعنى السياقي، والثاني هو المعنى المعجمي، والثالث هو تقييد للمعنى السياقي، وكان الأولى أن يذكر معه قبل الانتقال للمعنى المعجمي أو البدء بالمعجمي ثم يذكر السياقي في مكان واحد. لتيسير الفهم.

أحيانا يميز بين ثلاثة أنواع من التعريفات، المعنى الأصل ويبدأ به، والمعنى اللغوي، والمعنى الشرعي بهذا اللفظ قاصدا به المعنى الاصطلاحي للّفظ، ومنه تعريفه للسجود يقول: "والسجود في الأصل تذلل مع تطامن قال الشاعر [وهو عروة بن زيد الطائي]:

ترى الأكم فيها سجدا للحوافر

وقال اخر [قيل هو أعرابي من بني أسد]:

وقلت له اسجد لليلى فاسجدا

يعني البعير إذا طأطأ رأسه. وفي الشرع: وضع الجبهة على قصد العبادة [...] وأما المعنى اللغوي وهو التواضع لآدم تحية له وتعظيما له، كسجود إخوة يوسف له، أو التذلل والانقياد بالسعي في تحصيل ما ينو طبه معاشهم ويتم به كمالهم"[4].

[1]. المصدر نفسه، 108/1. تفسير الآية 64 من سورة البقرة.

[2]. البقرة، الآية: 58.

[3]. البيضاوي: أنوار التنزيل، 1/ 104.

[4]. المصدر نفسه، 1/ 87.

يلحظ أنه يقصد بالأصل المعنى المعجمي للكلمة[1]، وبالمعنى اللغوي المعنى السياقي داخل الآية، في حين يقصد بالشرعي المعنى الاصطلاحي للسجود. ويلحظ هنا أنه خالف الترتيب المعتمد في نماذج سابقة فبدأ بالمعنى المعجمي وختم بالمعنى السياقي، لكن هذا التعريف واضح، إذ سعى كل تعريف باسم يميزه عن غيره. ويلحظ هنا إشكال في المصطلح لأن القدماء كانوا يطلقون علم اللغة على المعجم أو علم المفردات، لكن البيضاوي خالفهم فاعتمد الأصل بمعنى المعجم واللغة بمعنى الدلالة داخل السياق. وهذا مشكل في تفسير البيضاوي أولا لأنه لم يحدد مصطلحاته في المقدمة وهذا من نواقص خطبة كتابه، ثم ثانيا لأنه لم يلتزم بالمصطلح الواحد في الكتاب كله، فأحيانا يعتمد مصطلح الأصل للمعنى المعجمي، وأحيانا يكتفي بإيراد المعنى من غير اصطلاح، وأحيانا أخرى يعتمد اللغة، يقول مثلا في تعريف النسخ: "والنسخ في اللغة: إزالة الصورة عن الشيء وإثباتها في غيره كنسخ الظل للشمس والنقل ومنه التناسخ. ثم استعمل لكل واحد منهما كقولك: نسخت الريح الأثر ونسخت الكتاب، ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو الحكم المستفاد منها أو بهما جميعا"[2]. يتضح من السياق أن المقصود باللغة هنا هو المعجم الذي يسميه في تعريفات أخرى الأصل، وما بعده هو المعنى الاصطلاحي للنسخ.

يتضح مما سبق أن توحيد المصطلح في الكتاب مع تحديده في المدخل ييسر قراءة الكتاب ويعين على فهمه، وهذا من أسباب الغموض في التراث العربي، أقصد التعدد الاصطلاحي وعدم تحديد المصطلحات.

وأما مصادره في هذه التعريفات فلم يصرح منها إلا بالقراءات القرآنية والشعر وبعض كلام العرب، ولم يصرح بأي كتاب اعتمده ولا بأسماء الأعلام الذين أخذ عنهم، على الرغم من أن معظم التعريفات مأخوذة من تفسير الزمخشري (ت.538ه) الموسوم بـ"تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل".

---

[1]. يسمى بالأصل في الدراسات الحديثة أيضا، ويعلل جبل محمد حسن التسمية بالقول: "وهو الأصل من بين أنواع المعاني، لأنه الذي وضع اللفظ له أول الأمر، في أقدم ما نعرف من تاريخ العربية". المعنى اللغوي: ص. 195. وأما المقصود به فهو "المعنى الذي تسجله المعاجم للمفردة اللغوية راعى فيها حروفها بترتيبها وصيغتها...". المصدر نفسه، 176.177.

[2] : البيضاوي: أنوار التنزيل، ج1

ومما يلحظ على منهجه أيضا أنه أحيانا يهمل اللفظ المبهم الذي يحتاج لبيان ويشرح اللفظ الواضح، فلم يعرف بالقصاص لا لغة ولا اصطلاحا، كما أنه لم يعرف القرآن ولا الصوم والزكاة في الاصطلاح، ولم يميز كسب من اكتسب، عندما وردت أول مرة، في حين عرف القسوة والمستقيم وغيرهما من الألفاظ التي تفهم دلالاتها من السياق.

3/ موقف البيضاوي من الدخيل:

شكل الدخيل في القرآن من لغات غير العربية موضوعة خلاف بين المفسرين، فانقسموا إلى مذاهب ثلاثة، فريق يقر بالدخيل ومنهم ابن جني 392هـ، وفريق ينكره ومنهم ابن جرير الطبري (ت. 310هـ)، وثالث يجمع بين الرأيين ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام(ت. 224هـ) . ويبدو من خلال نماذج من تفسير أنوار التنزيل أن البيضاوي لم يخض في مناقشة هذا الموضوع، لكن يبدو من خلال تعامله مع المواد موضوع الخلاف مائلا للرأي الثالث، ويظهر منها أنه غير ذي معرفة باللغات غير العربية، لذلك فإنه في معظم الألفاظ غير العربية يكتفي بنقل القول بأعجميتها عن غيره، ولا يشير إلى معنى الكلمة في اللغة الأصل كما أنه لا يجزم برأيه.

من أمثلته اسم الجلالة "الله"، لقد اختلف العلماء في أصل لفظة "الله" يقول الشريف الجرجاني (ت. 816هـ): "اعلم أن العقلاء كما تاهوا في ذات الله وصفاته...تحيروا في لفظ الله...فاختلفوا أسرياني هو أم عربي، اسم أو صفة، مشتق ومم اشتقاقه وما أصله، أو غير مشتق، علم أو غير علم"[1]، وقد أورد البيضاوي أيضا بعض الأقوال بهذا الشأن، فقال: "(والله) أصله إله، فحذفت الهمزة وعوض عنها الألف واللام ولذلك قيل: يا الله . بالقطع . إلا أنه مختص بالمعبود. والإله في الأصل لكل معبود، ثم غلب على المعبود بالحق. واشتقاقه من أله إلهة وألوهة وألوهية بمعنى عبد ومنه تأله واستأله، وقيل من أله إذا تحير لأن العقول تتحير في معرفته [..] وقيل علم لذاته المخصوصة لأنه يوصف ولا يوصف به [..] والأظهر أنه وصف في أصله لكنه لما غلب عليه بحيث لا يستعمل في غيره وصار له كالعلم مثل: الثريا والضعف أجري مجراه في إجراء الأوصاف عليه وامتناع الوصف به [..] وقيل أصله لاها بالسريانية فعرب بحذف الألف الأخيرة وإدخال اللام

[1]. الحاشية على كتاب الكشاف، ص.36.

عليه"[1]. لقد ذكر البيضاوي الأقوال المختلفة في أصل اسم الجلالة "الله" ومعانيه، ويبدو أنه يميل إلى القول بأن أصله إله، ومن ضمن الآراء التي ذكرها القول بأنه سرياني الأصل، ولم يعقب عليه مما يفيد أنه لا يعارض وجود غير العربي في القرآن، غير أنه يبدو غير ذي معرفة باللغة السريانية والمشترك السامي، فالكلمة من المشترك السامي، ولا تختلف عن الأصل الذي ارتضاه وهو إله، ولا يتعلق الأمر بلفظ "إلها" محذوف الحرف الأخير، وإنما هذا يتعلق باختلاف أداة التعريف، فهي في اللغة الآرامية بشكل عام ألف في اخر الكلمة فالألف في ألها هي أداة تعريف، وفي العربية في أولها. لذلك نجد ألها في السريانية بمعنى الله في العربية.

ومن الأمثلة أيضا قوله في شرح معنى: "الذين هادوا"، " ويهود إما عربي من هاد إذا تاب، سموا بذلك لما تابوا من عبادة العجل، وإما معرب يهوذا وكأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام"[2]. ونلحظ أن البيضاوي يستعمل لفظ معرب ولا يعتمد الدخيل على الرغم من أن اللفظ إذا ثبت أنه أصله يهوذا فإنه دخيل ولم يعرب؛ بحسب مفهوم المعرب والدخيل[3]. كما أنه لم يجزم برأي وإنما بناه على الظن باعتماد إما وإما.

ومن الأمثلة التي تظهر عدم معرفة البيضاوي باللغات غير العربية الواردة ألفاظها بالقرآن الكريم، لفظتي التوراة والإنجيل، يقول عنهما: "واشتقاقهما من الورى والنجل، ووزنهما بتفعلة وإفعيل تعسف لأنهما أعجميان، ويؤيد ذلك أنه قرئ الإنجيل بفتح الهمزة وهو ليس من أبنية العربية"[4]. ففي هذا القول مفارقة بين القول إن اللفظ أعجمي لا يمكن وزنه بالأوزان العربية، وبين الإقرار بأصل اشتقاقه في العربية وهو الورى والنجل، فكيف يكون اللفظ أعجميا دخيلا إلى العربية من غيرها ثم نفترض له أصلا اشتقاقيا في اللغة العربية[5]. ثم إن البيضاوي حكم بأعجمية

[1]. البيضاوي: أنوار التنزيل، 11.10/1.

[2]. البيضاوي: أنوار التنزيل، 1/ 127.

[3]. فالمشهور أن الدخيل يقصد به "اللفظ الأجنبي الذي دخل العربية دون تغيير". السيوطي: المزهر، 268/1." والمعرب "كل كلمة أعجمية دخلت إلى العربية خاضعة لمقاييس العربية وأبنيتها وحروفها". خسارة ممدوح محمد، المعرب والدخيل في المجلات المتخصصة، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مج 5/ ج4، 2000، ص ص . 920. 921.

[4]. البيضاوي: أنوار التنزيل، 243/1.

[5]. هذا يخالف تعريفه لـ"طالوت" إذ جعل أعجمية اللفظ حجة لرفض القول باشتقاقه من الطول، بقول: "طالوت علم عبري كداود وجعله فعلوتا من الطول تعسف يدفعه منع صرفه". المصدر نفسه، 210/1.

اللفظتين بناء على مخالفة وزنهما لأوزان العربية فقط ولم يشر إلى اللغة الأصل ولا إلى المعنى الأصل، مما يؤكد أنه استفاد هذا الحكم من إدراكه لقواعد العربية وإحاطته بأوزانها وليس من معرفة الأصول اللغوية وهنا يتأكد ما أشارت إليه البيضاوي في مقدمته من أن من لا يحط بلغات العرب لا يحق له الإقدام على تفسير كتاب الله. لكن معرفة المفسر باللغات غير العربية سيزيد من دقته في التفسير وشرح الكلمات غير العربية واتخاذ الموقف المناسب في دراسة بنيتها الصرفية.

يبدو إذن؛ من الأمثلة السابقة أن البيضاوي لا ينفي وجود ألفاظ غير عربية الأصل في القرآن الكريم، لكن تعامله مع المواد يختلف فهناك ألفاظ يبدو مترددا فيها فلم يجزم بأعجميتها وإنما يورد الاحتمالين معا من غير ترجيح، وألفاظ يكتف فيها بنقل رأيه غيره، وأخرى يعتمد على التصريف في إثبات عدم أصالتها في العربية. ولم يعتمد مصطلحا واحدا، وإنما عبر بالمعرب وبالأعجمي من دون تحديد المقصود بهما.

خاتمة:

يعد المعجم أساسا آلية من آليات التفسير؛ إذ لا يمكن فهم المعنى من دون معرفة بمعاني الألفاظ وملابساتها اللفظية والمعنوية.

اهتم البيضاوي بالمعجم وإن اختلفت طرق تعامله باختلاف المواد اللغوية، وهذا يظهر أهمية تفسيره إذ يتعامل مع كل ظاهرة لغوية بحسب خصوصياتها وما يقتضيه بيانها.

للبيضاوي من الدخيل في القرآن موقف إيجابي، إذ لا ينكل عن التصريح بأعجمية اللفظ، لكنه مثل معظم المفسرين يقف عند حدود القول بالأصل غير العربي من دون البحث في معناه في لغته الأصل ولا سر توظيف القرآن له ولا مناسبته.

يجد القارئ بعض الصعوبة في تتبع المعجم القرآني في تفسير البيضاوي وذلك راجع أساسا إلى عدم ضبط المفسر للاصطلاحات، مما أدى إلى تعددها وغموضها أحيانا.

إن المعجم مظهر من مظاهر الإعجاز في كتاب الله؛ إذ لكل لفظة معنى يميزها ويجعلها المناسبة للسياق من دون غيرها مما يبدو قريبا لها في المعنى، ومنه يتضح ألا ترادف في مفردات القرآن الكريم. كما أن معنى اللفظة الواحدة يختلف باختلاف السياق.

إن المعجم القرآني في كتب التفسير يحتاج إلى دراسات تكشف طرق تعامل المفسرين معه وتظهر التصور النظري المتحكم في منهجهم.

المصادر والمراجع:

بازي، محمد. **التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات**. ط.1. د.م: الدار العربي للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، 2010.

البيضاوي، القاضي ناصر الدين. **تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل**. حققه وعلق عليه وأخرج أحاديثه وضبط نصه: محمد حسن حلاق ومحمد أحمد الأطرش. ط.1. دمشق-بيروت: دار الرشيد، بيروت- لبنان: مؤسسة الإيمان، 2000.

جبل، محمد حسن. **المعنى اللغوي: دراسة عربية مؤصلة نظريا وتطبيقيا**. القاهرة: مكتبة الآداب، د.ت.

ابن جني، أبو الفتح عثمان. **الخصائص**. تحقيق: محمد علي النجار. لبنان: دار الكتاب العربي، د.ت.

أبو حيان الغرناطي، (محمد بن يوسف). **تفسير البحر المحيط**. الرياض: مكتبة النصر الحديثة، د.ت.

خسارة، ممدوح محمد. "المعرب والدخيل في المجلات المتخصصة." مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، مج 5/ ج4، 2000: ص. 920. 921.

الراغب الأصفهانى، (أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف). **المفردات في غريب القرآن المؤلف**. تحقيق: صفوان عدنان الداودي. ط.1. دمشق-بيروت: دار القلم، الدار الشامية، 1412ه.

ارحيلة (عباس). **مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع**. ط.1. مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، 1422ه/2002م.

السغروشني، إدريس. **مدخل للصواتة التوليدية**. البيضاء: دار توبقال، 1967.

السلامي، فاطمة. اللغة: المواطنة، الاقتصاد، التنمية، ط1، المطبعة الوطنية، مراكش، 2015.

السيوطي. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ضبطه وشرحه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه محمد أحمد جاد المولى واخرون، بيروت، لبنان، دار الجيل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان. كتاب سيبويه، تحقيق محمد عبد السلام هارون، ط.3، دار الخانجي، القاهرة، 1988

الشريف الجرجاني. **الحاشية على كتاب الكشاف**. د.م: مكتبة البابي الحلبي، 1966.

ابن كثير، إسماعيل. **تفسير القرآن العظيم**. ط.2. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1970.